Al-Qasemi Journal of Islamic Studies, **volume 8, issue 2 (2024), 121-157**

تحول برديغم (النموذج):
من خطاب الهويات إلى القيم والأخلاق لعبور الحدود

راسم محيي الدين خمايسي[1]

Shifting Paradigm; From Discourse of Identities to Values and Morality for Cross Border of Identities

Rasem Mohie eddin Khamaisi

Abstract

The formation of individual and collective identity is done by setting boundaries between individuals and groups to determine their affiliation. These boundaries are formulated in order to define oneself and identify circles of sharing and intersection or disagreement with the other. These boundaries are formulated and determined in some cases by individuals from below, i.e. by the initiative of the individual or from above, i.e. by a state/space or group in which the individual is born and lives under duress or desire. This article claims that the formation of identities is primarily influenced by the development, production and delimitation of borders. As the process of determining boundaries determines who is within these borders, subordinate and belonging to a customary and official identity, and who is outside the borders, he belongs to the other who has an identity formulated to differentiate and determine his features. We also argue that the state of globalization and contemporary universalism has formed the basis for progress towards the melting of identity boundaries, or has made these boundaries more permeable on the one hand, and on the other hand, the need to preserve local cultural and/or national identities, and with it to accept the tendency for transnational value and ethical sharing. The article begins by developing a critical

[1] بروفيسور راسم محيي الدين خمايسي، مخطط مدن وجغرافي، أستاذ التخطيط والجغرافيا الحضرية، قسم الجغرافيا، جامعة حيفا، ورئيس مركز التخطيط والدراسات، كفركنا،Khamaisir@gmail.com .

epistemological framework for the dialectic of identity formation and borders, followed by a brief reference formulation of the relationship between values and ethics from a conceptual point of view. Next, we put together the problems of defining borders and producing them for the situation and status of Palestinian Arab citizens, their definition of their identity, and the complexities of this definition according to multiple references. We then critically present the changes in the definition of individual and collective identity of Palestinian Arabs, presenting and analyzing the internal, external/subjective, and objective factors that influenced the process of changes and transformations that formed the identity dilemma with the definition of geopolitical boundaries. This is followed by the concept of redrawing borders after the "demolition" of existing borders to define the traditional identity paradigm, moving towards a paradigm that focuses on values and ethics in the circles of belonging and identity in order to secure existence and coexistence in the event of bridging identity contradictions, including among Palestinian Arabs in Israel.

الملخّص

تشكيل الهوية الفردية والجمعية يتم من خلال وضع حدود بين الافراد والمجموعات لتحديد انتسابهم. هذه الحدود تُصاغ من اجل تعريف الذات وتحديد دوائر التشارك والتقاطع او الاختلاف مع المختلف/ الاخر. تصاغ هذه الحدود وتحدد في بعض الحالات من قبل الافراد من تحت، أي بواسطة مبادرة الفرد او من فوق، أي من قبل دوله/ حيز او جماعه يولد ويعيش بها الفرد مُكرها او راغبا. يدعي هذا المقال ان تشكيل الهويات متأثر بشكل أساسي من وضع وإنتاج وتحديد الحدود. حيث ان عملية تحديد الحدود تحدد من هو داخل هذه الحدود، تابع ومنتمي لهوية عرفيا ورسميا، ومن هو خارج الحدود، فهو ينتمي للآخر الذي له هويه صيغت لتفريقه وتحديد سماته. كما اننا ندعي ان حال العولمة والكونية المعاصرة شكلت أساس للتقدم نحو ذوبان الحدود الهوياتيه، او جعلت هذه الحدود أكثر نفاذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ابرزت الحاجة الى حفظ الهويات المحلية الثقافية او/ والوطنية، ومعها قبول المَيل للتشارك القيمي والأخلاقي العابر للحدود. يبدا المقال بوضع اطارا معرفيا نقديا لجدلية تشكيل الهوية والحدود، ونتبعها بصياغة مرجعية موجزة لعلاقة القيم والأخلاق من منطلق مفاهيمي. بعد ذلك نضع إشكاليات تحديد الحدود وانتاجها لحال ومكانة المواطنين العرب الفلسطينيون وتعريفهم لهويتهم وتعقيدات هذا التعريف بموجب مرجعيات متعددة. ثم نقوم بعرض نقدي للتغيرات في تعريف الهوية الفردية والجمعية للعرب الفلسطينيين، عارضين ومحللين العوامل الداخلية والخارجية/ الذاتية والموضوعية التي اثرت على سيرورة التغيرات والتحولات التي شكلت معضلة الهوية مع تحديد الحدود الجيوسياسية. نتبعها طرح مفهوما لإعادة رسم الحدود بعد "هدم" الحدود القائمة لتحديد براديغم الهوية التقليدية، منطلقين نحو براديغم يركز على القيم والاخلاق في دوائر الانتماء والهوية من اجل تامين التعايش والمعايشة في حال جسر التناقضات الهوياتية، بما في ذلك لدى العرب الفلسطينيون في اسرائيل.

استهلال

تشكيل الهوية الفردية والجمعية يتم من خلال وضع حدود بين الافراد والمجموعات لتحديد انتسابهم. هذه الحدود تُصاغ من اجل تعريف الذات وتحديد دوائر التشارك والتقاطع او الاختلاف مع المختلف/ الاخر. تصاغ هذه الحدود وتحدد في بعض الحالات من قبل الافراد من تحت، أي بواسطة مبادرة الفرد او من فوق، أي من قبل دوله/ حيز او جماعه يولد ويعيش بها الفرد مُكرها او راغبا. أي ان هوية الفرد او/ والجماعة هي نتاج لحالات متعددة، منها ما هو ذاتي وأخرى موضوعي سياقي، تتولد وتتطور مع الفرد وتفرض علية حدود وانماط معايشة وتعايش تساهم في حمايته وتلبي غرائزه وشهواته. لخص الله سبحانه وتعالي هذا الحال بقوله: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" (الحجرات، 13). بموجب قوله تعالى فان الخلق البشري بدا بالأحادية ومر الى الزوجية/ الثنائية، ومنها انطلق الى التعددية لتشمل شعوبا وقبائل، لكل منهم خصائص وسمات، يتم التعارف فيما بينهم، بموجب منظومة من القيم والمعايير يكون التوافق عليها بعد التعرف والاعتراف بها لتشكل قواسم مشتركة بين افراد هذه الشعوب والقبائل وفيما بينها. تأسيس على هذا التعارف تنشا، تتشكل وتتطور نظرية التعارف في إطار مرجعية قيمية تجري في ظل الاكرام/ الكرم والتقوى الذي يشكل وعاء لأنسنه الانسان وضبط علاقات النسب والانتساب والتواصل مع الاخر. نظرية المعرفة تتطلب فهم علاقتها بالهوية أي الذات، مع منظومة الاخلاق والقيم التي توجه سلوك الانسان، وربما يكون تشارك ومشاركة بين الذوات في ظل هذه المنظومة. بالاعتماد على نظرية التعارف-التعرف، نحاول في هذا المقال نتناول حال الانتقال من بردايغم صياغة الهويات لإنتاج الجمع الهوياتي المتوافق بين مجموعة إنسانية، مقابل جمع انساني اخر، الى بردايغم يركز على منظومة القِيَّم والاخلاق كعابر ومتجاوز لحدود الهويات، ويزيد من فرص التشارك في أنسنه الانسان وفض بعض الخلافات، تسوية صراعات وربما حلها، او على الأقل تخيفها.

مسالة انتقال الفرد والجماعة من برادايغم الهويات الى تبني واعتماد منظومة قيم واخلاق كبرادايغم مؤسس وقاعدة للسلوك الإنساني وموجه لتنظيم مجتمعي، يزيد من فرص التشارك في التكوين الجمعي عابر للحدود التي توضع من اجل انتاج الهويات والتقوقع في حماها. ندعي بهذا المقال ان تشكيل الهويات متأثر بشكل أساسي من وضع وإنتاج وتحديد الحدود. حيث ان عملية تحديد الحدود تحدد من هو داخل هذه الحدود، تابع ومنتمي لهوية عرفيا ورسميا، ومن هو خارج الحدود، فهو ينتمي للآخر الذي له هويه صيغت لتفريقه وتحديد سماته. كما اننا ندعي ان حال العولمة والكونية المعاصرة شكلت أساس للتقدم نحو ذوبان الحدود الهوياتيه، او جعلت هذه الحدود أكثر نفاذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ابرزت الحاجة الى حفظ الهويات المحلية الثقافية او/ والوطنية، ومعها قبول المَيل للتشارك القيمي والأخلاقي العابر للحدود. هذا الحال دفع باتجاه تشكيل نموذج انتقال من أحادية الهوية المغلقة الى تعددية الهويات المتدرجة، المتقاطعة، المتكاملة والسياقية. يتم تحويل نموذج الانتقال بمراحل وبموجب سيرورة مع حفظ منظومه مروحية القيم والاخلاق التي يتوافق عليها المجتمع الإنساني في ظل الهويات الذاتية (المحليات، الوطنية، القومية، الدينية.. الخ). انطلاقا من هذه التحولات يمكن ان ندعي ان الانسان العصري يمكن ان يكون متعدد الهويات. هذه الهويات تعتمد على منظومة قيم واخلاق مشتركة ومتكاملة، وتشكل أساس، لصياغة تسويات سوسيوثقافية وجيوسياسيه حتى في مجتمعات تعاني من حالة صراع وتوترات اثنية وعرقية.

سنقوم بعرض ومناقشة الادعاء المذكور في هذا المقال من خلال دراسة حال المواطنين العرب الفلسطينيون في إسرائيل. هؤلاء المواطنون يعانون من مكانة وحال ترنح بين هوية المواطنة الإسرائيلية وهوية وطنية فلسطينية عربية. هذا الترنح يطرح تساؤلات، ثنائيات وتناقضات يعانون منها في وطنهم بعد او خلال تشكيل الحدود. لخص سموحة واخرون هذا الترنح بين الأسرلة والفلسطنة (ميعاري، 1992؛ Smooha, 1989). كما ان ممثلي الأحزاب العربية الفاعلة (القائمة العربية الموحدة، جبهة السلام والمساواة والتغيير والتجمع الوطني)،

يتناكفون فيما بينهم بشأن تعريفهم الهوية والالتزام بمرجعيات سياسية تصيغ خطابهم وسلوكهم السياسي (اسلامي، ماركسي، وقومي، برغماتي او دوغماتي) واسقاطاتها على حال المواطنة (عوده، 2023). تعقدت مسالة هوية المواطنة العربية في إسرائيل مع إقرار قانون أساس: " إسرائيل الدولة *القومية* للشعب اليهودي، 2018". هذا القانون وضع حدود الهوية الجمعية المقصورة على اليهود واقصاء المواطنين العرب من خلال تعريف هوية الدولة (خمايسي، 2023).

يستهل المقال بوضع اطارا معرفيا لجدلية تشكيل الهوية والحدود، ونتبعها بصياغة مرجعية موجزة لعلاقة القيم والأخلاق من منطلق مفاهيمي. بعد ذلك نضع إشكاليات تحديد الحدود وانتاجها لحال ومكانة المواطنين العرب الفلسطينيون وتعريفهم لهويتهم وتعقيدات هذا التعريف بموجب مرجعيات متعددة. ثم نقوم بعرض نقدي للتغيرات في تعريف الهوية الفردية والجمعية للعرب الفلسطينيين، عارضين ومحللين العوامل الداخلية والخارجية/ الذاتية والموضوعية التي اثرت على سيرورة التغيرات والتحولات التي شكلت معضلة الهوية مع تحديد الحدود الجيوسياسية. نتبعها طرح مفهوما لإعادة رسم الحدود بعد "هدم" الحدود القائمة لتحديد براديغم الهوية التقليدية، منطلقين نحو براديغم يركز على القيم والاخلاق في دوائر الانتماء والهوية من اجل تامين التعايش والمعايشة في حال جسر التناقضات الهوياتية، بما في ذلك لدى العرب الفلسطينيون.

نعتمد في صياغة هذه الورقة وفي العرض والتحليل بها على المنهج الوصفي النقدي المقارن، معتمدين على أبحاث ودراسات نظرية وتطبيقية سابقة أجريت واعدت كذلك من قبل الكاتب. كما تحاول الورقة وضع تساؤلات، إشكاليات إعادة تعريف الانسان لذاته وباي دائرة في حال وسياق به تحولات بالصراع القومي والذي أصبح ربما يتقلص من المستوى الإقليمي الاسلامي والعربي، الى البعد الوطني الفلسطيني والمواطنة في إسرائيل/ فلسطين.

كلمات مفتاحيّة: الهوية، القيم والأخلاق، الحدود، العرب الفلسطينيون، إسرائيل.

إنتاج الحدود والهويّات – إطار معرفي

يشكل النص القرآني مصدرا مؤسسا هاديا ومرشدا لفكر وممارسة موجه للسلوك الإنساني بشكل عام وللمعتقدين المؤمنين به بشكل خاص. يقول الله تعالى: "كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء الي صراط مستقيم" (سورة البقرة: 213). طرح المجتهدون في تفسير هذه الآية اجتهادات متعددة والتي تشير الى ان الأصل هو مرجعية سلوكيه واحدة، وهناك من يركز على فطرة الايمان والانضباط في ظلها. أي كان الناس متشابهين في انتمائهم، فكرهم، ايمانهم وربما حيزهم. ولكن بعد ان ازداد عددهم، تشتتهم وتوزعهم بين مجموعات وتحولهم من حال التشابه الاحادي الى حال الاختلاف والتنوع الفكري، العقائدي، الإيماني، السلوكي، والحيزي التعددي، بما في ذلك تحولهم الى الكفر والانحراف، بعث الله لهذه الاقوام نبيين ليبشروهم وينذروهم ليعيدوهم لفطرة الايمان في ظل التنوع والاختلاف. يمكن ان نستنبط من هذا النص القرآني انتقال الناس من حال الى حال مع انتاج الحدود بين الافراد والاقوام، وبقاء قيم الحق كمركب ضابط للسلوك الإنساني المشترك في ظل التعدد والتنوع. هذا الحق القيمي والأخلاقي المشترك بين الاقوام، والذي تم التوافق والتكامل بين الرسل والانبياء ليبشروا الاقوام المختلفين من حيث ذواتهم (لونهم، لغتهم، مكانهم، نسبهم، فكرهم، عقائدهم.. الخ)، وموضوعاتهم (مصالهم، متطلباتهم، حجمهم، سياقات معاشهم... الخ)، تم بثه ونشره بين الاقوام ليتبعوا درب الهداية والايمان، بموجب منظومة الحق المشترك فيما بينهم، وفي سياقنا نعرف الحق منظومة القيم والأخلاق التي تدفع الى الصلاح، الإصلاح والخيرية لصد الناس عن البغي فيما بينهم.

تَتَبُع حركة التطور البشري والتحولات الإنسانية وانساب الأقوام والمجتمعات، تظهر ان انتاج هذه الاقوام والمجتمعات كان نتيجة او مواكب لإنتاج، صياغة ورسم الحدود (Zaga, 2018).

يمر هذا الإنتاج بثلاثة مراحل على الأقل وهي: 1. انتاج الحد (bordering). 2.هدم الحد وتغييرة (de-bordering). 3. إعادة رسم الحد (re-bordering) في ظرفيه وسياقات جديده او متغيرة (Kolossov, 2005). وهذا يعنى ان الحدود هي متغيرة وغير ثابته، وانها تشمل مركبات غير مادية غير محسوسة (قيمية، رمزية، معنوية، فكرية؛ وأخرى مادية محسوسة (حدود جيوسياسية، فيزيائية، بلدية وقطع أراضي). وهناك فرق بين مفهوم الحد والحدود، يتجاوز المسالة اللغوية أي حدود هي جمع حد. بل يتجاوزها الى مركبات مفاهيميه ومعنوية، بما في ذلك مجال الليونة النسبية. أي ان الحدود تضع فرص اجتهادية في التعريف والتحديد، تأخذ بعين الاعتبار الظرفية والسياقات. وان الحد يشير الى الفصل والحافة بين امرين. وان أي شيء له حافة، وان حافة أي شيء، هي أيضا حافة شيء اخر في عالم الكون المحسوس. داخل إطار / حدود هذه الحافة من المفروض أن يكون تشابه، تكامل وتوافق عضوي مقبول بالمقابل لاختلاف مع خارج الحافة.

تميل غالبية الناس إلى التفكير في الحدود من خلال تحديد حدود الدولة حيث جوازات السفر ونقاط التفتيش الأمنية، أو ربما مجرد إشارات/ شاخصات وتنبيهات ومناطق خدمة الهاتف المحمول، وتشير إلى نهاية مكان وبداية مكان آخر تبينها خطوط على الخرائط أو شاشات نظام تحديد المواقع والتموضع المحلي والعالمي بموجب نظام المعلومات الجغرافية (GPS/GIS). يجدر الذكر، ان كل ذلك ذو أهمية كبيرة للناس ولكن بشكل عام تتجاهله الحيوانات والنباتات. وفى كتاب The Edge of the Plain ، يقدم المؤلف جيمس كروفورد (Crawford, 2023) تاريخا طموحا للحدود، معيدا القراء إلى المرة الأولى التي تم فيها رسم خط، وآخر ثم آخر، ولم نتوقف عن رسمها منذ ذلك الحين. أي ان رسم الحدود والحافات يشمل مكونات الجمادات، النباتات، البشر والإنسانية. هذه الحافات تشمل مركبات الهوية ومركبات منظومة القيم الاخلاق والأعراف. حيث ان مرد مصدر الهوية هي من مصدر تعريفي "من هو او لمن يهوى" داخل حافة المجال المحدد للمجال الذي يسعى لإبراز ذاته وتحديد سماته، وصياغة صفات تميزه عن "هو" آخر.

تناولت الادبيات مسالة الهوية ومركبات صياغتها (خالد، 2022). هناك تعريفات تقليديه للهوية، حيت تعتبر الهوية لفرد او لمجموعه، مجمل من الخصائص، السمات والمميزات التي يمتلكها او يتصف بها شخص او ينتمي اليها بحيث يحدد تميز وخصوصيه الفرد او مجموعه من الأشخاص عن غيرهم. تُعرّف الهوية بأنّها مزيج من الخصائص الاجتماعية والثقافية التي يتقاسمها الأفراد ويُمكن على أساسها التمييز بين مجموعة وأخرى، كما تُعرّف على أنّها مجموعة الانتماءات التي ينتمي إليها الفرد وتُحدّد سلوكه، أو كيفية إدراكه لنفسه، ويجدر الذكر أنّ الهوية تتأثّر بعدّة خصائص خارجة عن سيطرة الأفراد؛ كالطول، والعرق، والطبقة الاجتماعية والاقتصادية، والآراء السياسية، والمواقف الأخلاقية، والمعتقدات الدينية (أبو خليف، 2021). كما تعرف الهوية بموجب مجالات المعرفة. تعرف الهويّة في الفلسفة على انها هي حقيقة الشيء المطلقة، والتي تشتمل على صفاته الجوهريّة التي تميّزه عن غيره. كما أنها خاصيّة مطابقة الشيء لنفسه أو مثيله، ومن هنا فإنّ الهويّة الثقافيّة لمجتمعٍ ما تعتبر القدر الثابت والجوهري والمشترك من الميّزات والسمات العامة التي تميّز كل حضارةٍ أو مجتمعٍ عن الآخر. حسب علم الاجتماع فان نظرية الهوية الاجتماعية تتمثّل بدراسة التفاعل بين الهويات الشخصية والاجتماعية، كما تهدف إلى تحديد الظروف التي يُفكّر بها الأفراد كأفراد أو كأعضاء في الجماعات والتنبؤ بها. وتُصاغ نظرية الهوية الاجتماعية من خلال 4 عمليات: 1. التصنيف الاجتماعي: وتُشير إلى تحديد الهوية الذاتية للفرد مع مجموعة اجتماعية. 2. الإيجابية داخل المجموعة: تُشير إلى العواطف الإيجابية واحترام الذات الناتجة عن الانتماء للمجموعة. 3. المقارنة بين المجموعات: وتُشير إلى التصورات حول وضع المجموعات المختلفة. 4. العداء خارج المجموعة: وينتج عن مقارنات وتصورات بين المجموعات حول عدم شرعية بين المجموعات في المجتمع.

وبينت الدراسات التي عالجت مسالة الهوية ان هناك تنوع واختلاف في الهوية. وهذا يعني ان لا يمكن حصر الشخص بهوية واحدة. وتخلص الدراسات بثلاثة تصورات للتنوع التي تشكّل الهوية او الهويات وهي: 1. التنوع الديموغرافي، والمرتبط بالخصائص التي تميّز الفرد منذ

ولادته حتى مماته، والتي تعتبر هويّته الاصلية. 2. التنوع التجريبي، والمرتبط بحياة الانسان وما يمارس بها من تجارب تصنع ذاته وتفرقة عن اخر. 3. التنوع المعرفي والمرتبط بإصرار الفرد للبحث عن اشخاص لإكمال تفكيره وطموحه (De Anca and Aragon, 2018). كما يتضح من الدراسات ان هناك أنواع متعددة من الهويات، والتي من الممكن ان تكون تراكمية في ذات الفرد والمجتمع وتعرض في سياق وجودة وسلوكه. هذه الهويات تتشكل من: 1. الهوية الفردية/ الشخصية التي تبين، توضح وتفسر الماهية الخاصة بالإنسان. 2. الهوية الاجتماعية، وهي على الغالب غير اختيارية، وأنها تعتمد على مفهوم الأدوار الاجتماعية وطرق التصرفات التي تقوم بها معينة من الافراد. 3. الهوية الجماعية، وهي التي تتشارك وتتقاسم بها المجموعات الاجتماعية فقط، وتشمل المجموعات الدينية، القومية، الوطنية والمصلحية. 4. الهويات المتعددة، والتي بين علماء الاجتماع جدل بشأن تعريف مفهوم الهوية وتعريفها في حال تكون هوية الشخص مركبة ومعقدة، وان الهوية تتأثر بعوامل عديدة ترتبط بالقضايا العقائدية، الاجتماعية، الاقتصادية السياسية التي يعيش بها الفرد او المجموعة التي ينتمي اليها او يعايشها. 5. وصمة الهوية، والمرتبطة بالصفات الذاتية، الاجتماعية، السياسية والتي تربط الفرد او المجموعة بها، والتي لا تكون راغبة بها (خالد، 2022).

كما تظهر دراسات الهويات ان الهوية ليست امر ثابت بل متغيرة ومتطورة وموجوده على مروحية بين أحادية وضيق تعريف هوية الفرد والمجموعة الى سعة وتعددية التعريف. سمات تطور التعددية الهوياتيه تكون نتاج الانتماءات المتعددة والمضافة كتطور الهوية الدينية، القومية، الوطنية، السياسية، الاجتماعية، المهنية والمكانية. تتنوع هذه الهويات وتتشكل مع وجود تعقيدات وتركيبات متعددة في حياة الافراد والجماعات. هكذا فان مسالة جدليّة ثبوت الهويّة أو تغيرها مطروحة على محك النقاش والمساءلة بين الباحثين، وقد أثبتت الدراسات والجدالات العلميّة أنّ هويّة أية أمةٍ أو مجتمع ليست أمراً سرمديّاً أو ثابتاً – وفق رؤية المفكّر المغربي محمّد عابد الجابري (2011)، بل هي مرتبطة بكافة المؤثّرات الخارجيّة، إضافةً للتداول العلمي للثقافات والأفكار، ولارتباطها بالصراع على السلطة والحيز. وهذه

الصراعات تؤثّر عليها بشكلٍ مباشر أو غير مباشر لعبة المصالح والتوازنات والمؤثّرات الخارجيّة المحيطة والمعمول بها من قبل قوي فاعله. كما ان جدلية ثبوت وتغيير الهوية مرتبط بتشكيل الحد وكيفية التعامل معه من حيث مدى الانغلاق والانفتاح.

رصد تطور الهويات يظهر وجود رغبة لدى مجموعات بشرية تنتمي وتنمي هويتها الجمعية وانتماء الافراد اليها. هكذا، من غير الممكن أن نجد قوم، شعباً، فئة سكانية تعيش في حيز جغرافي من غير هويّة جمعية تتقاسمها وتجتمع في ظل سماتها ولغة تشكل أداة اتصال وتصيغ هوية (امارة، 2020). فاللغة كما يصورها محمد عابد الجابري (2007) "إنّ روح شعب من الشعوب "تتجلى في لغته القومية" فهي ليست مجرد أداة للتعبير وإنما هي "الفكر ذاته، إنها الوجدان ذاته، إنها الثقافة ذاتها".

كما بينت الدراسات السوسيو-ثقافية أنّ لكلّ قوم، شعب، مجتمع أو أمّه عدداً من الخصائص، والسمات اللغوية، الاجتماعيّة، الثقافية، والمعيشيّة، والنفسيّة، والتاريخيّة البيئية المتماثلة، وهذه الخصائص والسمات تعبّر عن كيانٍ ينصهر فيه أفرادٌ منسجمون ومتشابهون بتأثيرٍ هذه الميّزات والخصائص التي تجمع ما بينهم ويتشاركون بها. من منطلق هذا الشعور الجمعي، الوطني/ القومي فإن كلّ فردٍ يستمد إحساسه بالانتماء والهويّة، ويشعر بأنه ليس مجرّد فكرةً نكرة، وإنما هو مشتركٌ مع مجموعةٍ كبيرة من الأفراد في عددٍ من المعطيات والأهداف والمكوّنات، إضافةً لانتمائه إلى ثقافةٍ مركبة من جملةٍ من الرموز والمعايير والصور، وفي حالة انعدام هذا الشعور بالانتماء من قبل الفرد نتيجة عددٍ من العوامل سواء كانت داخليّة أو خارجيّة، فإنه ينشأ في أعماقه ما يطلق عليه اسم (أزمة الهويّة) والتي ينتج عنها أزمة وعي تؤدي إلى ضياع تلك الهويّة بشكلٍ نهائي معلنةً نهاية وجوده (الحلايقة، 2018). أجمع الباحثون على فكرة عدم وجود شعب دون هويّة، لكنهم اختلفوا في الشكل المحدّد لتلك الهويّة، ومن هذا المنطلق انتقد بعضهم ما يطلق عليه الشكل الميتافيزيقي المحدّد لهوية الشعوب والأمم، ويعمل على تقديم شخصيتها ضمن إطار نماذج مثاليّة أو تصوراتٍ ساكنة دون النظر إليها كمجموعاتٍ حيّة تتميّز بالعديد من الاحتمالات الكاشفة

عن ذاتها بعد عمليّة تحققها، وقام هؤلاء بطرح مقاربةٍ سيسيولوجيّة تظهر الهويّة على أنها تتغذى بالتاريخ لتشكل بعدها استجابةً مرنة متحولة مع تحوّل الأوضاع التاريخيّة والاجتماعيّة، ومن هنا يرون بأنّ الهويّة نسبيّة متغيرة مع حركة التاريخ والانعطافات التي يتعرّض لها.

وان أحد مسببات تغييرات الهوية وإعادة تشكيلها يعود الى التغيرات والتحولات في الحدود الإدارية او الجيوسياسية التي تفصل بين مجموعات اثنية/ قومية/ وطنية. ويمكن ان نشير الى ان بداية تشكيل الهوية القومية الوطنية انطلقت بعد اتفاق وستفاليا 1648، وتعززت بلورتها بعد الثورة الفرنسية، حتى ان بعض الباحثين يدعي أن مفهوم الهوية تبلور حديثا مع قيام الثورة الفرنسية في عام 1789 والذي ما لبث أن انتشر في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، ثم في مختلف أنحاء العالم. ويعتبر البعض أن فكرة الهوية القومية الوطنية ربما تكون قدمت للمجتمعات العربية بفعل وصول المؤثرات الاقتصادية والفكرية الأوروبية (حجاوي، 2001)، وبعد بداية تشكيل الدولة العربية الحديثة المنشأ، بما في ذلك في فلسطين، بعد معاهدة سايكس بيكو والتي قسمت منطقة الهلال الخصيب ووضعت حدود جيوسياسية لوحدات إدارية خاضعة للاستعمار وبعد ذلك انتقلت وتحولت الى دوله وطنيه حديثه.

تشكيل الهوية العربية الفلسطينية

يوجد نقاش بين الباحثين حول ماهية تشكيل الهوية العربية الفلسطينية، وذلك مردة الى موضع فلسطين الجغرافي والتحولات التاريخية التي مرت بها وتقلبات الحضارات الإنسانية عليها (الدبش، 2005). تظهر المسطرة التاريخية والاثرية لفلسطين انها خضعت لإمبراطوريات وأنظمة سياسية حكمت البلاد واستقطبت اليها شعوب واعراق سكنت او مرت بها (حجاوي، 2001). هذه الشعوب تقاسمت المكان واعادت تشكيل ذاتها بها بعد انصهارها مع صفات المكان المتنوعة نتيجة لتموضعها، لتضاريسها ومناخها، مما دفعت الى تشكيل هويات جماعية محلية او مناطقية معتمدة على البطريركية العظامية، وتشمل القبلية والحمائلية في ظل غياب نظام حكم مركزي وطني، بل كان المركب الإسلامي العربي هو الحاضن للهويات المحلية

البطريركية في البلاد بعد فتحها في القرن السابع الميلادي. وحيث ان كناعنة (2009) صاغ تعريف للهوية بقوله إنها "ليست شيئا ملموسا يمكن تعريفه بأبعاد وصفات واضحة، بل إن هناك العديد من التعريفات حسب النظريات ووجهات النظر المختلفة... يمكن القول بأن الهوية هي كيفية تعريف الفرد لذاته... (و) يجب أن ينسب الإنسان نفسه لما يحيط به أي بالنسبة إلى باقي العالم". فالهوية هي صورة الفرد عن موقعه على خريطة العالم". ونظرا لان حدود فلسطين كانت مفتوحة ومرت عليها شعوب ذات لغات مختلفة منذ الكنعانيون، فان هوية الانسان في المدي الفلسطيني هي متحوله ومتغيره على امتداد الزمان الطويل الذي تقلبت الحضارات والاقوام بهذا المدى.

ولأجل فهم المسطرة التاريخية لفلسطين يمكن مراجعة كتاب بلادنا فلسطين للسيد مصطفى مراد الدباغ (1988)، والذي يؤكد أن بلاد فلسطين كإقليم تقع في قلب وواسطة العالم القديم وتربطه جغرافيا، كانت ومازالت ارض ممر ومستقر لأقوام وحضارات كثيرة جزء منها بائدة، وأخرى مازال أسلافها يعيشون في هذه الأرض المباركة. جزء من هذه الأقوام تم رصدها وتسجيلها مع بداية التاريخ علميا، وهو الوصف المتعارف عليه حين عرفت الكتابة حوالي عام 3500 قبل الميلاد، فعلى سبيل المثال سجل التاريخ سكن اليبوسيين (وهم بطن من بطون العرب الكنعانيين) في القدس، وبنائهم لها خلال حوالي عام 3000 قبل الميلاد وعرفت القدس آنذاك باسمهم "يبوس".

أما بلاد فلسطين فعرفت بأرض كنعان؛ منذ ذلك العصر تبدلت ملل وأقوام في هذه البلاد تاركة ورائها موروث حضاري مادي. ومن يسير في بلادنا، يجد بها طبقات متعددة ومتراكمة من آثار الأقوام السابقة، ومواقع حضارات وطنت في مدن وقرى كثيرة ما زالت شاهدة على قدم هذه البلاد. نجد هذا القدم مرتبط كذلك بالرسالات السماوية الموحدة والتي مارسها اليبوسيون والذي استضاف ملكهم ملكي صادق, سيدنا إبراهيم عليه السلام عند قدومه إلى بلاد فلسطين من أور جنوب ما بين النهرين – العراق حاليا؛ حيث أقام بها وأكد ومارس رسالة التوحيد كما ذكر الله تعالى في سورة آل عمران آية 66 :" ما كان إبراهيم يهوديا ولا

نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين". أو كما جاء في سورة النحل آية 120:" إن إبراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين". لتأكيد عبودية إبراهيم عليه السلام قام بالتوطن في بئر السبع وبنى بها بئرا ومسجدا والذي يعتبر أول مسجدا بني في فلسطين بعد المسجد الأقصى كما ذكر ذلك الدباغ نقلا عن الطبري (الدباغ؛ 1988). هكذا يتضح قدم فلسطين وقلبها القدس وتواصلها مع مواطن ومواقع حضارية أولية محيطة خاصة حضارة مصر القديمة وحضارة ما بين النهرين ولاحقا حضارة الجزيرة العربية وقلبها مكة والمدينة.

منذ بداية القرن العشرين بدأت تتشكل الهوية العربية الفلسطينية، وذلك بعد رسم الحد بين مصر والدولة العثمانية عام 1906، ولاحقا رسم الحد بين لبنان وشرق الأردن، لاحقا المملكة الأردنية الهاشمية بعد عام 1946. رسم حدود فلسطين صيغ بموجب اتفاق سايكس – بيكو عام 2016، وبسط انتداب بريطانيا على فلسطين عام 1921. قبلها خضعت فلسطين للإمبراطورية العثمانية وتقسيماتها الإدارية. في ظل الإمبراطورية العثمانية كانت الهوية المحلية القبلية الإقليمية سائدة في ظل الهوية العربية الإسلامية، والتي تمتد خارج حدود المكان. يجدر الذكر ان تشكيل الهوية الوطنية الفلسطينية هي امتداد لبداية تشكيل الدولة الوطنية/ القومية والتي نُقِلت الى العالم العربي والإسلامي، بما في ذلك فلسطين، بعد بسط الاستعمار الأوروبي، وعلى وجه الخصوص، البريطاني والفرنسي، ومع ذلك تطبيق روح اتفاق وستفاليا 1648 في الشرق، ورسم حدود لتشكيل الدول العربية الوطنية المتنوعة (Zaga, 2018)، رغم انتمائها القومي العربي ولغتها العربية، لغة القران، ومعظم سكانها يدينون بدين الإسلام.

عامل إضافي مؤسس في تشكيل الهوية الفلسطينية هو تشكيل الهوية الجماعية اليهودي الصهيونية (ساند، 2010)، وسعي الحركة الصهيونية تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، خاصة بعد صدور وعد بلفور 1917 من قبل بريطاني، والعمل لفرضة وتطبيقه في فلسطين.

انشات الحركة الصهيونية مشروع حداثي مشكلا هوية جماعية، تعتمد على رواية وعقيدة دينية مرتبطة بمكان، فلسطين، وكما تسمي حسب الرواية اليهودية ارض إسرائيل. هذه الحركة صاغت هذا المشروع وأنتجته مهندسا ومهجنا ليتناسب مع مفاهيم الدولة الحديثة، ذات المنشأ المفاهيمي الأوروبي الاستعماري الحداثي. وعي رائدو الحركة الصهيونية الظرفية التي نشأوا بها وصاغوا هوية مع رؤية واهداف تحاول ان توازن بين التناقضات في المصالح بين القوى الاستعمارية الأوروبية بالأساس، وبناء علاقات معها، تم توظيفها لخدمة انجاز مشروعها الكولونيالي لإحياء الرواية والعقيدة الدينية وتشكيل هوية جماعية ربطت في الانتماء الديني، الوطني والمكاني.

هذا المشروع بُرِرَ أخلاقيا من قبل الحركة الصهيونية بادعاء حق تاريخي مكتسب، منشأ لواقع ديموغرافي وجغرافي يعتمد على التفضيل الاثني\الديني\ القومي\ المواطنة في فلسطين. لإنجاز هذا المشروع وافقت وتجانست الحركة الصهيونية بين لغتها وسلوكها وبين المشروع الأوروبي الحداثي، خاصة وان رواد الحركة الصهيونية ومنتجي فكرها وسلوكها نشأوا وتشكلوا في حاضنة الفكر والممارسة الاوروبية، رغم التنوع والاختلاف فيما بينها شكلا ومضمونا (ساند، 2010).

استثمرت الحركة الصهيونية، أوروبية المنشأ، وضع تطوير فكر مستقبلي منشود لحل مشكله عرقية/ اثنية حالية والتي تتلخص بـ "المسالة اليهودية"، وحاجة هذه المجموعة لترجمة روايتها المبنية على عقيدة دينية لإقامة وطن قومي تحكمه دوله عرقية/ اثنية. هذه الرواية مبنية على الانتماء لماضوية توراتية تلمودية كوعاء جامع لتثبيت حالة أخلاقية جماعية، لبناء دوله عرقية/ اثنية مستقبلية باستخدام قوة الدولة الحديثة للسيطرة على الموارد خاصة الأرض/ الحيز في ظل توافق مصالح بين دول أوروبية استعمارية وبين الحركة الصهيونية وتناقضها العميق مع الدولة العثمانية والحضارة العربية الإسلامية السائدة في فلسطين. هكذا تمكنت الحركة الصهيونية استغلال حالة الاستعمار الأوروبي، بما في ذلك العداء مع الدولة العثمانية

وضعفها لصياغه مشروع مهجن يربط بين الرواية والعقيدة الدينية التوراتية والحداثة الأوروبية لإنجاز استعمار صهيوني له خصوصية ظرفية في فلسطين (خمايسي، 2022).

قامت الحركة الصهيونية باستقطاب هجرة يهودية وافدة الى فلسطيني، وانجزت شبكة قرى ومدن كانت أساس في رسم حدود قسمت فلسطين – "ارض إسرائيل الانتدابية" الي دولتين، يهودية وعربية بموجب قرار التقسيم الامي رقم 181، الصادر عام 1947. بعد هذا القرار، ومن أجل تطبيقه كانت حرب 1948، نتيجتها كانت نكبة للعرب الفلسطينيين، مقابل استقلال لليهود الصهيونيين في حدود حددت بموجب خط وقف إطلاق نار، تحول لاحقا لمطلب حدود بين دولة إسرائيل المقامة، ودولة فلسطين المنشودة (خمايسي، 2023 ;Khamaisi, 2008).

هذه الحرب شرذمة العرب الفلسطينيون، الذين سعوا الى تشكيل هوية جماعة وطنية، الى عدة هويات محلية إقليمية، بموجب المناطق التي قسمت لهم بقية فلسطين الانتدابية؛ 1. اقلية عربية في إسرائيل. 2. عرب فلسطينيون في منطقة، أطلق عليها اسم الضفة الغربية، وضمت للمملكة الأردنية الهاشمية حيث أصبحوا مواطنين لها؛ 3. عرب فلسطينيون في منطقة غزة، أطلق عليها اسم قطاع غزة، في ظل إدارة أقيمت من الجامعة العربية، أطلق عليها "حكومة عموم فلسطيني"، لاحقا ضمت وخضعت للجمهورية العربية المتحدة. هكذا، منذ حل حكومة عموم فلسطين حتى عام 1967، كان قطاع غزة يخضع للإدارة المباشرة لحاكم عسكري مصري. 4. عرب فلسطينيون لاجئون، بعضهم داخل حدود فلسطين الانتدابية واخرون خارجها. رغم مركبات الهوية الجامعة للمجموعات الأربعة، فان تشكيل الحدود خلقت هويات محلية ذات سمات مختلفة، تابعه للدولة الوطنية التي خضعوا لها.

بعد احتلال اسرائيل لباقي الأراضي العربية الفلسطينية، التي كان بعضها ضمن الدولة العربية بموجب قرار التقسيم 181 الامي 1947، أستأنف وتعزز مطلب إقامة الدولة الفلسطينية، تحقيقا لرؤية حل الدولتين، ومن اجل ان تكون حاضنة للهوية الوطنية الجماعية الفلسطينية، مقابلة للهوية الجماعية الإسرائيلية، التي ما زالت تترنح بين الهوية

المدنية/ المواطنة مقابل الهوية القومية الدينية. هذا الترنح يساهم في سلب، تشويش وإدخال المواطنون العرب في حال ازمة هوية وانتماء يترنح بين هوية المواطنة الاسرائيلية، مقابل هوية قومية وطنية، عربية فلسطينية إسلامية. هذا الترنح والتعقيد وما يرافقه من تناقضات وثنائيات ازداد مع زيادة عدد السكان العرب الفلسطينيون والتفتيش عن تسويات جيوسياسية بين اليهود الصهيونيين والعرب الفلسطينيون.

نظام هويات مشرذم معيق تشكيل هوية جمعية

طبقت الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل بعد انجاز رسم حدودها هوية جماعية يهودية صهيونية صاهره لمهاجرين وافدين من دول مختلفة، منحوا المواطنة في داخل دولة إسرائيل التي تمارس نطام ديموقراطي عرقي/ اثني. مقابل ذلك تمارس الدولة قوتها لشرذمة وتقطيع هوياتي للمجتمع العربي الفلسطيني. هذا التقطيع يتم بواسطة تطبيق تقنيات السيطرة على جهاز سجل النفوس (مواليد، وفيات، هجرة ومنح أذونات داخل وخارج من الحدود). تمنح إسرائيل في كل الأراضي التي تخضع لسيطرتها مكانة مواطن لكل يهودي بها، وله الحق في ممارسة كاملة لحقوق المواطنة الممنوحة بموجب المواثيق، القانون الدولي والمحلي والأعراف، حتى للمستوطنين الذين يسكنون الأراضي الفلسطينية المحتلة، بينما يُحرم من هذه المكانة غالبية العرب الفلسطينيون في وطنهم.

ترجمة عملية لشرذمة الهويات الممنوحة للفلسطينيين حسب مكانات الإقامة وتطبيق الرقابة عليها تتم من خلال رسم حدود تحدد منح بطاقات هوية متعددة ذات ألوان مختلفة للفلسطينيين المقيمين في فلسطين بعد شرذمة مكانة المكان، خاصة بعد اتفاقيات أوسلو المرحلية 1994، وتشكيل السلطة الوطنية الفلسطينية. بموجب القرار الإسرائيلي والذي تم الاتفاق علية مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وتم إقراره في الاتفاقيات المرحلية بين الطرفين، قُسِم العرب الفلسطينيون رسميا واداريا الى خمس هويات ذات مكانات مختلفة.

1. العرب الفلسطينيون في إسرائيل؛ حيث مُنِحت لهم بطاقة هوية زرقاء وتعريفهم مواطنين في دوله إسرائيل وبذلك منحوا حق مكانة مواطنه حسب القانون الإسرائيلي الذين يسكنون

داخل الخط الأخضر، أي داخل حدود إسرائيل ما قبل الاحتلال لأراضي فلسطينية عام 1967. هؤلاء المواطنون يحملون الجنسية الإسرائيلية، جواز السفر الإسرائيلي ولهم حق الترشيح والتصويت للبرلمان- الكنيست- الاسرائيلي 2. العرب الفلسطينيون المقدسيون سكان القدس الشرقية، والذين منحوا مكانة مقيمين ثابتين؛ يحملون بطاقة هوية زرقاء، لهم حق الترشح والانتخاب لبلدية القدس، ولكنهم لا يحملون المواطنة الإسرائيلية، بل بقوا مشرذمين بين المواطنة الأردنية الرسمية وبين المواطنة الفلسطينية كسائر سكان الضفة الغربية. 3. العرب الفلسطينيون الذين يسكنون حدود منطقه ج والتي تشكل 60% من الضفة الغربية، منحت لهم بطاقة هويه برتقالية، والتي تعني انهم مازالوا يقبعون تحت الاحتلال الإسرائيلي، وعلية مسؤولية ادارة شؤنهم وتقديم الخدمات لهم. 4. العرب الفلسطينيون الذين يسكنون في الضفة الغربية في المناطق المسماة أ و-ب، والتي تشكل حوالي 40% من أراضي الغربية، بدون القدس الشرقية، منحت لهم بطاقة هويه خضراء، رغم تفريق إسرائيل في مكانتهم ومسؤولية السلطة الفلسطينية بشأنهم، حيث تقع على السلطة الفلسطينية مسؤولية حفظ الامن الداخلي في المنطقة أ بينما الوضع مختلف بالمنطقة ب (خمايسي، 2020). 5. العرب الفلسطينيون الذين يسكنون في قطاع غزة منحت لهم بطاقة هويه خضراء. إضافة للتنوع الهوياتي الرسمي للعرب الفلسطينيين، والذي تم التوافق علية مرحليا بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، هناك هويات متعددة للعرب الفلسطينيون الذين يعيشون في الشتات، حيث ان بعضهم منح وثيقة سفر او جواز سفر من الدولة المضيفة له او يعيش بها مع تحديد المكانة والحقوق. هذا التعدد/ التنوع الهوياتي الذي يظهر كأنه شكلي، هو عمليا يحدد مكانة الشخص ومجال حركته وذلك بموجب نظام التراخيص/ الاذونات التي تفرضها السلطات الإسرائيلية على ضبط حركة الفلسطينيين في وطنهم وعلى حقوقهم السياسية والحياتية.

كجزء من حال شرذمة الهوية الجماعية العربية الفلسطينية بنيت اتفاقيات أوسلو المرحلية، على التفريق بين مكانة الانسان ومكانة المكان. كما اوضحنا فان مكانة الانسان الفلسطيني

عرف بموجب بطاقة الهوية بخمس مجموعات تسكن في وطنها. اما التفريق الهوياتي الإضافي صيغ على قاعدة فصل المكانة بين المكان/ الأرض بتصنيفها الأراضي الفلسطينية الى أربعة مكانات حددت وشرذمت مكانة المكان والانسان الى: أ. مواطن مالك وثابت يشمل المستوطن الإسرائيلي في القدس الشرقية والمناطق المسماة ج. ب. مقيم ثابت (في ظل ضوابط مقوننة مشروطة)، يشمل الفلسطينيين المقدسيين (خمايسي، 2022). ج. مقيم ساكن مهدد، يشمل الفلسطينيين الذين يسكنون القرى والمضارب وتوسيعات البلدات الفلسطينية في المنطقة المسماة ج. د. الفلسطينيون الذين يسكنون في المنطقة المسماة ب لهم مكانة تختلف عن أولئك الذين يسكنون بالمنطقة المسماة أ، وذلك من حيث المسؤولية الأمنية الداخلية ومستوى الصلاحيات الممنوحة للسلطة الوطنية الفلسطينية لإدارة السكان والمكان. يضاف الى ذلك مكانة العرب الفلسطينيون الذين حظو بالمواطنة الإسرائيلية ويخضعون لقانون الدولة، وتمارس ضدهم سياسات تمييز مُمَأسسة وبنيوية.

بُعد إضافي لإنشاء الهويات المحلية، ما يمكن ان نطلق عليها "هوية بلدية مدنية"، وهذا يعني ان الانسان ينتمي الى بلدته التي يعيش بها حياته اليومية. وهناك مدارس تدعي ان الانسان حاليا يجد ان هويته المحلية البلدية تفضل عن هويته القومية والوطنية، خاصة في حالة ثبات واستقرار حدود الدولة الوطنية، مما يدفع الى زيادة ميل الانسان لهويته المدنية البلدية التي يشارك بشكل مباشر في انتخابها والانتماء اليها. في الواقع العربي الفلسطيني في إسرائيل والأراضي الفلسطينية، فان تحديد الحدود الإدارية لمناطق نفوذ بلدية مازالت تحمل ابعاد سياسية وعرقية. تمنح منطقة النفوذ البلدية بقرار من وزير الداخلية لسلطة محلية بلدية او مجالس محلية عند تشكيلها. تشكل مساحة مناطق نفوذ السلطات المحلية العربية بداخل إسرائيل اقل من 2.5% من مساحة الدولة، مع ان المواطنين العرب يشكلون 18% من مواطني الدولة، وان عدد السلطات المحلية العربية تشكل حوالي ثلث عدد السلطات المحلية في الدولة (85 سلطة محلية عربية من مجمل 256 سلطة محلية بإسرائيل). كما ان استخدام تقطيع الحيز بواسطة مناطق نفوذ بلدية يتم تطبيقها في الأراضي الفلسطينية المحلية، وحاليا

63% من مساحة منطقة ج تخضع لمناطق نفوذ بلدية تدير المستوطنات الإسرائيلية. تضاف طبقة حدود مناطق النفوذ البلدية الى طبقة الحدود الإدارية –الجيوسياسية، مما يزيد من تعقيدات شرذمة إدارة الحيز. كما ان عدم الاستقرار الجيوساسي واشكاليات تشكيل الهوية الوطنية والقومية، تدفع نحو خفض مكانية الهوية البلدية المدنية، رغم أهميتها وحضورها في الخطاب والسلوك اليومي، الا ان الخطاب الذي يتناول المكانة للهوية الوطنية والقومية مازال ذو قوة وحضور في الحيز الفردي والجمعي العام.

أزمة هوية المواطنون العرب الفلسطينيون في إسرائيل

غياب او تأخر التسوية السياسية بين العرب الفلسطينيون واليهود الصهيونيين تلقي بظلالها المباشرة على هوية العرب الفلسطينيون مواطني دولة إسرائيل، ومدى تشكيلهم لهوية جماعية ذات خاصية مما يدخلهم في حال يطلق عليه "ازمة هوية". هذه الازمة تتمثل في حال التناقض بين انتماء الانسان لدولته التي يعيش بها في وطنة، وبين الانتماء لشعبة الذي تحاربه دولته، وكما عبر عنها اول وزير عربي مسلم في الحكومات الاسرائيلية السيد غالب مجادله بقولة "دولتي تحارب شعبي"[2]، وسبقة وتبعه في هذا الوصف كثيرون، حاولوا ان يوفقوا بشكل عقلاني بين انتمائهم الوطني القومي وبين مكانة وحال المواطنة التي يحاولون صراع البقاء والتنمية في الدولة. كجزء من هذه العقلانية التشاركية المشروطة صيغت شعارات موجة لخفض منسوب ازمة الهوية التي يعاني منها العرب الفلسطينيون مواطنو دولة إسرائيل مثل "السلام والمساواة" و "المساواة ولا أقل من المساواة"، "المساواة المدنيّة والقوميّة" أو "التضامن مع شعبنا الفلسطيني في الأراضي المحتلة" وما إلى ذلك من شعارات تحاول عقلنة حال الازمة التي يعانون منها، في حال استمرار الحركة الصهيونية وضع تعريف دولة إسرائيل بانها دولة يهودية وديموقراطية أي انها أولا هي يهودية. كما ان دولة إسرائيل أقيمت بعد حرب ونكبة الفلسطينيون، وحتى ان حوالي ربع مواطنوها العرب هم لاجئون في

[2] https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=96952

وطنهم. أسس هذا الحال لحال ازمة الهوية لدى العرب الفلسطينيون كما سنبين بعض ملامها لاحقا.

تبدأ ازمة الهوية بتعريف الاسم الذي يطلق على المواطنين العرب الفلسطينيين في إسرائيل. هؤلاء المواطنون يطلق عليهم أسماء/ تعريفات متعددة ومركبة مما يظهر التعقيدات الهوياتيه الانتمائية. هناك أسماء متداولة مثل عرب إسرائيل، العرب في إسرائيل، العرب الإسرائيليون، العرب الفلسطينيون في إسرائيل، الفلسطينيون في إسرائيل، فلسطينيو الداخل، عرب الداخل، عرب 48... الخ. فحص مركبات التسمية يكشف عن تترنح بين المركب المدني المواطنة، المركب المكاني، المركب الزماني، المركب الديني، المركب الوطني والمركب القومي.

حتى الان، لا يوجد توافق على مسمى المواطنين العرب لوصف هويتهم الجماعية في دولة إسرائيل، مما يؤكد ازمة الهوية الانتمائية للمواطنين العرب والتي تترنح بين الإسرائيلية، الفلسطينية، العربية، الدينية والزمنكانية، حتى انهم يصفون انتمائهم وتعريف هوياتهم بموجب الظرفية والتموضع. وما يزيد من تعقيدات مسمي الانتماء الهوياتي للمواطنين العرب الفلسطينيون هو تعدد انتمائهم الديني (مسلمون، مسيحيون، دروز). فان سياسة إسرائيل تعزيز شرذمة هوياتية وتجنب تشكيل هوية جماعية، عليها توافق واجماع من إسرائيل ومن العرب الفلسطينيون مواطني دولة إسرائيل. نتيجة هذه السياسة؛ تقسيم العرب الفلسطينيون جغرافيا (جليل، مثلث، نقب ومدن مختلطة)، دينيا (مسلمون، مسيحيون ودروز)، اثنيا/ ثقافيا (بدو، شركس)، وعشائريا/ قبليا. تشكلت هذه التقسيمات مع رسم حدود دولة إسرائيل وبقاء اقلية عربية مقابل اغلبية يهودية تحدد هوية الدولة وسياساتها التمييزية ضد المواطنين العرب، وتحرمهم من حقوق جماعية وفي ظل صراع مجذر ودامي يشمل موارد رمزية، بما في ذلك حرب روايات، وموارد مادية محسوسة مثل الأرض والقوة الخشنة.

حاليا فان أكثر من 50% من سكان فلسطين الانتدابية هم عرب فلسطينيون (مسلمون، مسيحيون ودروز)؛ منهم 18% هم مواطنون رسميا في دولة إسرائيل، هذا العدد يزداد عدديا،

رغم سياسات التهجير، الحصار والتمييز التي تمارسها دولة إسرائيل ضدهم، مستخدمة قوة الدولة ودعم العالم الغربي لها مترجمة الى مصفوفة ضبط ذكية مشكلة من مركبات قاسية وناعمة[3]، مُتَذَرِعة برواية الضحية على خلفية محنة "المسالة اليهودية" التي نشأت في أوروبا، بالإضافة إلى التميز العرقي والديني الذي عانى منه اليهود، ويدفع ثمنها العرب الفلسطينيون بعد أن "صُدِّرتْ" المسالة اليهودية إلى فلسطين/ "ارض إسرائيل". كما أن رصد، تتبع ودراسة مواقف وسلوكيات المجتمعات اليهودية في اسرائيل، يظهر أن بينها تنوع ومدارس هوياتيه متعددة ومختلفة؛ منهم من يؤكد على الهوية والانتماء الاثني الديني الثقافي- الاورثدوكسي "حريديم"، آخرون يركزون على الهوية الصهيونية القومية الدينية ومجموعة ثالثة تركز على الهوية الصهيونية الإسرائيلية العلمانية. داخل هذه المجموعات توجد مدارس ومواقف بعضها يُغَلِب الجانب الديني، آخر يغلب الجانب القومي وثالث يغلب الجانب المدني الديمقراطي. وان استغلال توفر أغلبية قومية يهودية يمينة صهيونية/قومية ودينية في المشهد السياسي، والذي برز بعد انتخابات نوفمبر 2022، والذي يشكل الحكومية الإسرائيلية الحالية، هو الدافع وراء اقتراح وإقرار قانون القومية، وما سبقه من سن قوانين مُميزة ضد العرب مواطني الدولة من جهة، ومن جهة ثانية إعاقة أو منع إجراء تسوية جيوسياسية مع الفلسطينيين على أساس الشرعية الدولية وتطبيق حل الدولتين. وحالية نقوم الحكومة الإسرائيلية اليمينة الحالية بتطبيق مركبات نص وروح قانون القومية 2018 (خمايسي، 2023).

قراءة مشهد الصراع والازمة الهوياتية

قراءة مشهد مكانة وحال العرب الفلسطينيون في إسرائيل وسلوكهم في ادارة ازمة هويتهم ومشاركتهم الصراع الطويل مع المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة والمسيطرة على الموارد والحيز

[3] خمايسي راسم محيي الدين، 2022، التخطيط الحيزي والممارسة الاستعمارية الصهيونية في فلسطين، المستقبل العربي، العدد 525، السنة 45، ص. 45- 58.

العام، والتي تمارس ضدهم سياسة مكونة من مصفوفة اقصاء، سيطرة، تجزئة وتبعية مبينة على وضع حدود فيزيائيته في الحيز، واخري وظائفية وإدارية تحدد المساحات المسموحة لحركتهم. ومن خلال هذه القراءة الموضوعية للمشهد الهوياتي للمجموعات السكانية والسياق الذي يعيشون به في ظل الحدود المتعددة الموضوعة لإبراز التقطيع/ التنوع الهوياتي والذي يزيد من الازمات بين مواطني الدولة الواحدة.

يخطئ من يظن أن الواقع الجيوسياسي والتنوع الهوياتي الذي نشأ بعد النكبة وقيام دولة إسرائيل عام 1948، وتحول العرب الفلسطينيون من أغلبية عددية، كانت تسعى إلى الاستقلال وبناء دولة وطنية عربية كما حدث لدول عربية مجاورة، إلى أقلية بعد أن غُلبت في الحرب، وخلال هذه الحرب تم تهجير واقتلاع حوالي 850 ألف عربي فلسطيني من 570 مضارب، قرية ومدينة (Abu Sitta, 2011, Morris, 1991). وتحولت بقية العرب الفلسطينيون إلى مواطنين في وطنهم ، في دولة إسرائيل اليهودية التي أقيمت كجزء من المشروع الصهيوني الذي انطلق من مفاهيم دينية يهودية وصاغ خطاب ورواية لإعادة تشكيل الهوية الجماعية العبرية على اعتبارات قومية، اما العرب في الدولة الجديدة دخلوا في ورطة وأزمة هوياتية. ومازال مشروع الدولة اليهودية يترنح بين القومي والديني، مستخدما الديني لخدمة الوطني\القومي.

لا شك أن العرب الفلسطينيون يعيشون في أزمات وورطات هوياتية في حالة صدام بين مشروعين: واحد اسلامي عربي فلسطيني يربط بين الديني، القومي والوطني وهو ما ينتمون الية العرب الفلسطينيون، وآخر صهيوني يهودي يشمل بعض صفات الاستعمار يسعى للسيطرة على الوطن مستخدما النظام الديموقراطي كأساس لإدارة السلطة. هذا الصراع له مركبات عديدة متأثرة وتؤثر على مركبات القوة، والتي فيها العرب الفلسطينيون هم الطرف الضعيف. في واقع الصدام والصراع وسياسات التمييز والإقصاء نشأ العرب الفلسطينيون في وطنهم بمواطنة مشروطة ناقصة (اوستروتسكي وجيارين، 2016). وحاليا يعيشون في واقع به كثير من الازدواجيات والتناقضات ويمكن إيجازه، بأنهم يعاني من حالات

مرضية كثيرة وهم بحاجة إلى معالجة من حال الازمات الهوياتيه. هذه المعالجة لا يمكن أن تكون سهلة ولا تنطبق عليها أساليب معالجة تقليدية منطلقة من مفاهيم وسلوكيات ماضوية نشأت وتطورت خارج السياق الموضوعي لمجال الدولة. لذلك لا بد من قراءة جدية لهذا الواقع المحلي، الإقليمي والعالمي وطرح تسويات توفيقة هوياتية تخفف الازمات التي يواجهها العرب الفلسطينيون.

هذه القراءة للمشهد الهوياتي للعرب الفلسطينيون من اجل تغيير، تكون أساس لوضع تصور ومشروع قِيَّمي، سياسي اجتماعي اقتصادي يخفف من التناقضات والثنائيات التي يعيشونها مستخدمين المساحة الممكنة في النظام الديموقراطي لنيل بعض حقوقهم وتنميتهم ذاتنا وبيئتنا. وان إحدى أسس هذه القراءة هي التفريق بين العوامل الذاتية أي المتعلقة بهوية العرب الفلسطينيون، والتي يمكنهم أن يغيروها بذاتهم، وتلك المتعلقة بالآخر، الهوية اليهودية الصهيونية، إن كانت تلك المفروضة أو تلك التي تحقق أهداف مشروع الدولة. لا شك أن بين هذه العوامل توجد جدلية، وان الفصل بينها بشكل كامل هو أمر صعب، ولكن إذا اجتهدنا نستطيع الفصل من اجل المعالجة. وان منطلق العرب الفلسطينيون لبناء أي مشروع جيو سياسي اجتماعي هوياتي، من المفروض أن يعتمد على مقومات رئيسة؛ ويمكن أن أوجزها بالحضور الواعي الذي يعتمد مرجعيات أخلاقية إنسانية، تتجاوز الحدود، ترفض الظلم وتسعى إلى تحقيق العدل، تعتمد الاختلاف، التعدد والتنوع، وتسعى إلى تحقيق الخيرية والصلاح. هذه المقومات الأخلاقية القيمية هي أساس لمنع بناء مشروع سياسي اقتصادي على كثبان من رمل متحرك، منغلق، يعزز خطاب ماضوي غير حاضر بيئته، وهو خطاب خارج النص والسياق مبني على قراءة مثالية رغوبيه متجاهلة للواقع، ولا يمكن انجازها مما تؤدي إلى إحباط. وان المشروع السياسي الاجتماعي الاقتصادي الذي يبنى على أسس نفي وإقصاء وانغلاق هوياتي، وقراءة غير واعية للواقع والمقومات المستقبلية مصيره الفشل وإبقاء حالات الازمات الهوياتية.

براديغم القيم والأخلاق للخروج من أزمة الهويات

شكل براديغم خطاب، سلوك وحدود الهويات الذي يعتمد على الانتماء العرقي/ الاثني أساس لصياغة وتبني سياسة الهويات (Politics of Identity) ذات بعد واحد لبناء الهوية الذات وفصلها عن الاخر. وبذلك يضع برادايغم الهويات حد بين مع من داخل دائرة الهوية الذي يشمله ومع من خارجها ليُقصيه، وفي حال الصراع القومي الجيوسياسي العرقي، فان سياسة الهويات تؤجج الصراع وتقلل من فرص خلق فرص لتسويات ومد الجسور للتعاون عابرة لحدود الجمع الهوياتي. خاصة في حال هذا الجمع الهوياتي، يعمل لبناء ذاته وتشكيل قوته وامتلاك إرادة سياسية للسيطرة على الموارد. يساهم براديغم الهوية في تعزيز العنصرية العرقية ويقلل من فرص إمكانيات احتواء الاخر والتشارك معه في اقتسام الخير العام في الدولة، والتعاون والتشارك عابر للحدود بين هويات متعددة، مما يزيد من أزمات مجتمعات ذات هويات مختلفة، كما هو حال المواطنون العرب الفلسطينيون في إسرائيل. استمرار العمل بموجب براديغم تنمية، بناء وتعزيز الهويات، واستخدامها لتوجيه سياسات منطلقة من الانتماء الهوياتي وتفضيلها عن هوية الاخر، تؤجج الصراع وتزيد من الصدام والمواجهات، خاصة في حال صراع بين اقلية قومية واغلبية قومية. مقابلها نقترح تبني براديغم يعتمد على القيم والأخلاق الإنسانية من اجل عبور حدود الهويات الجمعية القومية، الدينية، الطائفية، الفئوية العشائرية. بموجب خطاب القيم والأخلاق يكون هدم، ذوبان، رشح الحدود بين المجموعات الهوياتية، واستبدالها بتطوير جسور تواصل تعتمد على تقاسم وتوافق على منظومة قيميه وأخلاقية انسانيه بين المجموعات الهوياتيه.

يجدر الذكر ان تبني واعتماد برادايغم قييمي واخلاقي موجه وضابط لبراديغم الهويات، لا يعني الغاء او محو الهويات، بل يعني إضافة طبقة إضافية فوق الهويات الفئوية، تعتمد على منظومة قييمية واخلاقية يتشاركون بها العائلات الإنسانية، وهذا يعني أنسنه الهويات واعدة بناء حدود تعتمد على نظم وقواعد أخلاقية وقِيَّمه ضابطة وموجه لسلوك الفرد والمجموعات الهوياتية. تشمل هذه القيم الموجة للأخلاق والسلوكيات الانسانية الفردية

والجماعية العدل، القسط، المساواة، الانصاف، الخيرية، الحرية، حق التنوع، حق الحياة الكريمة، الاحترام، الكرامة، الاحسان ... الخ من القيم التي يجمع عليها بنى الانسان بانها مطلوبة لتكوين وتفعيل المجتمع الانسان. إحدى القيم الأساسية المتعلقة بانسنة الانسان هي قيمة الحرية. حيث ان الحرية هي قيمة لإتمام وكمال انسانية الانسان. فوجود الانسان مرتبط بتوقر قيمة الحرية، حيث يتحول من كائن، شخص او فرد الى انسان يملك حق الاختيار والتصرف والتحرك، وذلك يشمل حق الانتماء، العقيدة، الاعتقاد، الايمان. وان مكانة إنسانية الانسان تتحقق وتنمو بقدر قدرته على تحقيق وامتلاك هذه الحقوق واكتسابه لهذه الحريات. يجدر الذكر ان جدلية العلاقة بين إنسانية الانسان وبين توفر ممارسة قيمة الحرية لها دلائل وبينات سوسيولجية وتاريخية، وموثقة بدلائل دينية عقائدية مثبتة بالنص القرآني بقوله تعالى: " لا اكراه بالدين ". أي ان اسلام وايمان الانسان من مفهوم ديني قراني لا يستقيم إذا لم يعتمد على تذويت قيمة الحرية، ولا يحقق نتائجه الاخلاقية إذا لم يتسم بها. أي ان تطبيق وممارسه الحرية من منطلق ديني هو حق فطري انساني.

تطبيق خطاب ومماربة براديغم القيم والأخلاق لا يكون بدل خطاب الهويات، بل هو تغليف له ويخضع في ظله. أي ان خطاب الهويات بدون ان يكون مبني على القيم والأخلاق يصبح اشكالي، وربما يدفع نحو العنصرية وتشكيل حدود بين المجموعات الهوياتية، مما يزيد من فرص تصعيد الصدام بتطبيق سياسة الهويات وتشكيل هويات تصبح متصارعة، إذا لم تخضع لنظم قيمية وأخلاقية. خاصة وان هذا النظم تساهم في عبور الحدود بين المجموعات الهوياتية والتجسير فيما بينها، وخلق مرجعيات للتوافق بين هذه المجموعات التي له هويات مختلفة، حتى في حالة وجود صراع، تناقضات او ثنائيات وازدواجيات بين المجموعات ذات الهويات المختلفة.

في ظل تطبيق براديغم خطاب القيم والأخلاق تنطوي تعدد وتنوع الهويات، تدرجها وتشكيلها من طبقات بينها تكامل في نفس الانسان. أي انه يمكن للإنسان في العصر الحالي ان ينتمي لعدة هويات بينها يوجد تكامل وينتسب وينتمي اليها، او يتعايش معها في وضع / حال وسياق

صراع بين مجموعات هوياتية. مع ان الانسان العصري في واقع العولمة العابرة للحدود يسعي الى التفاضل في الانتساب، القولبة والانتماء للهوية المكونة له كشخص ينتمي الى جماعة ذات هوية جماعية، بين هذا الفرد وهذه الجماعة مصالح وشعور واحاسيس وموروث يرتاح لها الفرد وتحفظه او تحميه. هذه الهوية المتعددة المتنوعة التي يوسم بها الفرد العصري ذاته في عهد العولمة هي متدرجة ومكونة من طبقات عابرة للحدود في ذاته وفي جغرافية حركته في الحيز الذي يعيش به او يتعايش معه. كما ان التنوع والتدرج يمتد الى التنوع في الانتماء للتراث والتاريخ، بحيث يقوم الفرد بالانتماء الية بشكل انتقائي، خاصة في حال ان المسطرة التاريخية لدوائر الانتماء الهوياتي للفرد والجمع الذي ينتسب الية هو فطري بيولوجي ام فكري عقائد قاطع وعابر حدود المكان والزمان. هذه الحدود الجغرافية بين الاقوام والحمى التي عاشت بها في البيئات المتعددة (مناخ، تضاريس، تموضع...الخ)، كونت ثقافات محلية، تشمل الأعراف، السلوكيات، الملامح وسمات الفرد والجمع، مما دفعت بتشكيل هويات محلية. بنيت هذه الهويات بعد ان انتجت لسان ولغة مشتركة، وصاغت سرديات وروايات بانية للذات منتسبة الى جماعة ذات تاريخ وموروث مشترك. هذه الحدود الطبيعية انشات هويات عضوية محلية، تم تقطيعها وشرذمتها بواسطة الحدود الجيوسياسية التي انشات لاحقا، نتيجة لرسمها حدود الدولة القطرية "الوطنية/ القومية" الحديثة. وفي حالات أخرى، صيغت حدود الدولة "الوطنية/ القومية" من اتحاد او تجميع هويات محلية، بينها يوجد اشتراك ومشاركة في السردية، اللغة، الثقافة وتقدم لتطوير رواية المصير المشترك. في ظل هذه التحولات التي يمر بها الانسان العصري، بما في ذلك في سياق انفتاح الفرد للكونية، والعالمية ونشوء تحديات بيئية جديده، مثل تغيرات مناخية عابرة للحدود، تزداد الحاجة الى تطوير خطاب وسلوك القيم والأخلاق الجامعة التي يتقاسم بها البشرية والإنسانية المتجاوزة للهويات المحلية المتصارعة. كجزء من التحول الخطابي والسلوكي صيغت مواثيق اممية ودولية متجاوزة حدود الدولة "الوطنية/ القومية" تسعى الى حفظ حرية، كرامة الانسان وحقة في الحياة الكريمة بغض النظر عن هويته المحلية وانتسابه الديني.

يواجه الانتقال من التركيز على براديغم خطاب الهويات الى تبني براديغم خطاب القيم والأخلاق صعوبات وتحديات، خاصة في واقع صراع هوياتي في الدولة "الوطنية/ القومية"، كما هو حال العرب الفلسطينيون في إسرائيل. وان استمرار هيمنة براديغم خطاب الهويات لا يعني استمرار الخضوع له او منحة شرعية مطلقة، رغم أهمية حاجته، بل يتطلب مواجهته ومقاومته بواسطة تطوير تبني براديغم خطاب القيم والاخلاق بشكل تراكمي، يحول دون خلق اضرار من خطاب ونهج سياسات الهويات، لا يمكن او من الصعب اصلاحها. لذلك فان المشروع الذي يؤدي إلى الخروج من الأزمات والتناقضات يكون مبني على أسس تذويت القيم والاخلاق كبوصلة موجهة للحضور الفاعل والمشاركة الواعية بمفهوم تعميق المشاركة في الدولة "الوطنية/ القومية". تسعى هذه المشاركة الى التشارك النِدّي في انتاج، إدارة وامتلاك الخير العام، بالموازاة مع بناء الهوية الذات وتطويرها، وخلق واستثمار الفرص الممكنة من اجل تغيير الواقع، منفتحة على المختلف المتنوع المحلي والعالمي. هذه المشاركة لا تعني شرعنه إقرار الظلم والاعتداء الهوياتي في الدولة "الوطنية/ القومية" للأغلبية بل دفعه والتشابك معه. وان استمرار إلقاء اللوم على الآخر/ الاغلبية الهوياتيه ووصفها ورصد خططها وبرامجها لتشكيل هويتها الجماعية، دون محاسبة الذات، نحن العرب الفلسطينيون، ليس بهدف جلدها بل بهدف تقويمها وتعزيزها، لا يسعفنا في بناء مشروع فكري وطني سياسي ينطلق من قيم ومفاهيم اخلاقية انسانية تنموية تتبني براديغم خطاب القيم والاخلاق.

حال سلوك العرب الفلسطينيون في حيزهم

كما أشرنا فان المواطنون العرب الفلسطينيون يعانون من ازمة هوية وتطبيق سياسات الهويات في ظل ترنح هوية دولة إسرائيل والمجتمعات بها بين الديموقراطية، الإسرائيلية، الصهيونية واليهودية. بالموازاة، يشهد المجتمع العربي الفلسطيني تغيرات وتحولات سلوكيه، بنيوية ووظائفية كثيرة كجزء من القرية الكونية، بظرفيتنا المنفتحة والمفتوحة على حضارات العالم والمجتمعات الانسانية المتنوعة. هذه التغيرات والتحولات هي نتاج زيادة عدد السكان، حيث زاد عددهم من 156 ألف عام 1949 (بعد النكبة)، الى حوالي مليونين اليوم (2023)،

تغير في المبنى الديموغرافي والاجتماعي والثقافي، وارتفاع المستوي الاقتصادي ... الخ. هذه التحولات رافقتها عملية تَمدُن ومَدْيَنة، أي تحول القُرى إلى بلدات ومُدن، وحدوث تغيرات في أنماط سلوكنا الفردي والجمعي، واستثمارنا لأوقاتنا ووسائل الإنتاج وعمليات الاستهلاك المتوفرة وتلك المُنتَجة محليا او مستوردة. كجزء من سيرورات التحولات هو الخلط بين مفاهيم القيم والأعراف والتقاليد كأنها متشابه. هذا الخلط يضيف مساهمته لإضاعة البوصلة وتشويه المعايير التي تمنحنا التفريق بين المهم والاهم في مركب الانتماء الهوياتي، وبين المسألة المركزية والثانوية لتوجيه سلوك المجتمع من اجل إدارة شؤونه الحياتية في واقع التحولات السريعة التي يمر بها المجتمع العربي في ظل الصراع وتشكيل هويته الاعتراف بسرديته في وطنه.

إن متطلقنا في تبني براديغم القيم والأخلاق يتلخص بأن على أي فرد أو امة تقع مسؤولية وواجب المحافظة على منظومة القيم والاخلاق الفردية والجمعية التي تضبط سلوكه وعلاقته مع نفسه ومع مجتمعه، وكذلك العلاقة بين المجتمعات المتصلة او المتشابكة معهم. هذه القيم تُشكل البوصلة الموجهة لمنظومة الأخلاقيات والسلوكيات التي نسعى أن نحافظ عليها ونحميها. بينما الأعراف والتقاليد هي متغيرة ومتحولة متأثرة من واقع المجتمع على ما يشمله الأمر من حجم البلدة، طبيعة العلاقات بين أفراده، وسائل إنتاجه واستهلاكه المادية والمعنوية والثقافية. لذا نجد أن الأعراف والتقاليد وبعض معالم الهويات هي متغيرة بينما القيم باقية ثابتة ولها معاني وتطبيقات إنسانية عامة. صحيح أن ديننا الحنيف اقر بإشارة إلى أننا يجب علينا الأخذ بالعرف لقوله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف:199)؛ مع ذلك فان الأعراف والتقاليد غير الحميدة جاء الدين ليغيرها ويستبدلها بأعراف مُنتَجة منطلقة من قيم إنسانية أخلاقية. لذا فان بعض الأعراف والتقاليد تَخضع لميزان بين القبول والرفض وبين أن تكون محمودة او غير محمودة. بينما القيم هي محمودة ومرغوبة. فمثلا قيمة الصدق، العدل، الإنصاف، قول الحق، بذل الجهد، الاجتهاد، الكرم، التضحية، العمل هي قيم متفق عليها انها محمودة، بينما أعراف وتقاليد تنطوي في ظل

بعض ملامح الهويات كانت شائعة في الجاهلية والبداوة والمجتمع القروي القبلي الحمائلي مثل الانتقام، الدية، الالتزام بالقبلية، أنماط وسلوكيات الزواج والمآتم هي أعراف تعارف عليها الناس بعد أن قام بها احدهم وتبناها الآخرون كتقليد لتصبح من سلوك ناسخ مُقَلد فردي أو جمعي إلى عرف عام بيئي ومنها انتقل ليكون تقليد، رغم انه في بعض الاحيان جزء من هذه الأعراف مجانب او مغاير او حتى مخالف للقيم، رغم ذلك يستمر الناس الأخذ به كأنه قانون مجتمعي يعاتب من يخالفه او ينكر على من لا يعمل به. وحتى ان هذه الاعراف والتقاليد انتقلت وتجذرت في السلوك الاجتماعي الهوياتي وتبنته واعتمدته البنى المؤسسات السياسية التي تسعى الي حفظ العظاميه كجزء من تقليد قَبَلي، بدل العصامية والأهَلية، دون الاكتراث بالانتماء العشائري والقبلي، وأصبحت تتعامل معه كمركب ثابت في الهوية الجمعية والفردية.

لذلك يجب التفريق بين منظومة القيم وما يتوارث من اعراف وتقاليد حميدة بانية للهوية، التي يتم توريثها وأخذها كإرث محمود ممن سبقونا والعمل بها. بينما هناك حاجة ملحة إلى قراءة ناقدة للأعراف والتقاليد التي توجه وتضبط سلوكنا الحياتي في ظل الهويات المتدرجة والتي ربما تتحول الى حال من الاغلال الكابحة والضابطة للسلوك المجتمعي، الوظائفي والسياسي. تسعى هذه القراءة الى التفريق بين مدى مناسبه الاعراف والتقاليد المبنية عليها لمنظومة القيم التي ندعو وننادي لكي نلتزم بها، وتلك المخالفة للقيم يُمكن تبديلها واستحداث أعراف وتقاليد جديدة تصيغ هوية فردية وجماعية مناسبة للواقع الذي نعيشه. هكذا فان الفرد، المجتمع والامة الذين تضبطهم منظومة قيم واعراف وتقاليد حميدة مشتقة ومنحوتة منها، وتكون الفيصل الذي يحكم انتمائهم الهوياتي وسلوكهم الحياتي، لا بد من خروجهم من ازماتهم وتَخَلُفهم. اما الذين يستمرون في اجترار الاعراف التي نشأت وتطورت في بيئة ماضوية مختلفة وما زلنا نقلدها وتضبط سلوكنا، وتدعو فئات ونخب مصلحيه تمارس سياسات الهويات العرقية، القبلية والمحلية ذات تأثير في مجتمعنا للعمل بموجبها وعدم

مخالفتها لأنها مستفيدة حتى مصلحيا وربما ماديا منها وتحفظ لها مواطن القوة بواسطة صياغة الحدود غير النافذة.

إن الخطاب والسلوك السلفي الهوياتي الداعي لحفظ براديغم الهويات بشكل مطلق هو مساهم في إعاقة تطوير مشروع المواطنة في الواقع الإسرائيلي الحالي، وربما يزيد الغربة بين الشباب المغامر النقدي الذي يسعى الى تطبيق براديغم خطاب القيم والاخلاق وبين براديغم خطاب الهويات المحافظ والسلفي، وهذا ربما يؤدي في بعض الأحيان الى صراعات حتى بين الأفراد وفئات المجتمع العربي الفلسطيني، وحتى أولئك الذين تربطهم صلات قربى او جوار. نلاحظ تحولات في خطاب الهويات والعلاقات الاجتماعية، الحيزية والسكنية كجزء من المنظومة الاجتماعية التي يعيشها ويتم التحول معها، بالموازاة تكون المحافظة على منظومة قيم إنسانية منطلقة من مفاهيم دينية واجتماعية تحافظ علينا كأفراد ومجتمع مستقر متكافل ومنسجم. هذه التحولات القيم والاخلاق الأعراف والتقاليد هي صحية ومناسبة لتطور كل مجتمع، وعلى المجتمع واجب التعايش والتَماشي معها، وان لا يشعر بحرج بالمعايشة معها وقبولها، وحتى تطويرها بموجب ظرفيته. بالمقابل مطلوب تطوير خطاب وسلوك حفظ القيم والجهار بها، لأنها الضابط الأساسي لمكونات المجتمع الاجتماعية والتي تحافظ على ميزات سلوكه بموجب منظومة مُثُل وأخلاقيات يستطيع أن يفاخر بها المجتمع ويورثها كأسس باقية للتنمية والنهضة المنشودة للمجتمع، رغم التناقضات التي يعيشها ابنائه؛ ومع ذلك عليهم مسؤولية بذل الجهد من اجل اخذ نتيجة نحو التنمية والاستقرار والصحة المجتمعية (مجلي، 2022).

ربما يقول ناقد لما تقدم بان هذا الخطاب والسلوك الذي ينادي بتبني براديغم خطاب القيم والأخلاق عابرة لحدود الهويات التقليدية ليحكم سلوكنا، وبناء علية غربلة براديغم الهويات والاعراف والتقاليد، بادعاء ان هذا ليس بالأولوية، او اننا مجتمع قروي محافظ، او اننا نعاني من واقع جيوسياسي ظالم معتدي مُميز ومُقصي على اساس اثني- قومي عنصري وأننا لا نملك اراده انتاج وادارة الحيز العام. ان من العوامل الرئيسة والرائدة للخروج من ازماتنا

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، اعتماد وتطوير منظومة قيم موروثه مشتقة منها اعراف وتقاليد تساهم في اعادة بناء مجتمعنا ونهضته بما في ذلك بناء هوية متعددة المركبات وتكامل طبقاتها التكاملية التراكمية.

خاتمة

مسالة خطاب الهويات التقليدي يرسم حدود لا بد من تغييرها وحتى هدمها وإعادة رسم حدد تعتمد على برادايغم القيم والأخلاق لتشكل الوعاء للهويات التقليدية التي تدخل في ظلها. بقاء حال رسم حدود الهوية الذاتية في سياق جيوسياسي، اجتماعي تعددي متنوع وعابر الحدود ذات أحادية الهوية في حيزات جيوسياسيه او إدارية وظائفي متعددة تساهم في زيادة أزمات الانتماء للأفراد والجماعات، خاصة تلك التي تعاني من صراع عميق ومجذر كما هو حال العرب الفلسطينيون مع اليهود الإسرائيليين الصهيونيين. مازال كلا الهويتين، العربية الفلسطينية مقابل اليهودي الصهيونية في حال بناء هويته الذاتية بالاعتماد على مقومات مرتبطة بالانتساب، التراث، التاريخ، الجغرافيا، السردية، اللغة والمستقبل، متجاهلين ملامح الواقع الذي اوجد تشابك قسري فيما بينهم، مما يدفع باتجاه تذويب بعض الحدود فيما بينهم، وتشكيل حدود جديدة تعتمد براديغم قيمي أخلاقي بتشكيل الهوية الجماعية لتخفيف الصدام وتصعيد المواجهات والانتقال الى حال التسويات وتجسير الخلافات بين الهويات الذاتية للخروج بهوية جماعية متنوعة مستوعبة للأخر ومتعايشة معه باحترام. وان المنطلق لهذه المعايشة ان الانسان العصري في الدولة القومية/ الوطنية يتمتع بتعدد وتنوع وتدرج الهويات التي يتشارك بها مع الاخر، ويستطيع التعايش في ظل تعدد الهويات دون افراط ولا تفريط، بوسطية سمحه تعتمد منظومة القيم الاخلاق كأساس لبناء الجسور عابرة للحدود. توجد حاجة للخروج من حالة بها كسل فكري وخلق حوار جاد واعي متحدي، يفتح فرص التطور والمشاركة وليس الإقصاء الهوياتي الذاتي. وان المشاركة الهوياتية تعني بتطوير أدوات لا تلغي الذات، بل تبنيها، وتتمكن من طرح افكار خارج المألوف وتستطيع وضع مفاهيم وسلوكيات خارج حدود السياق التقليدي الماضوي الموروث للهوية

الذاتية من حالات الضعف؛ بل يمكن الاستفادة من موروثنا في حالات القوة، مع ذلك تقع علينا مسؤولية تطوير أدوات تتوافق مع حاضرنا لبناء مستقبلنا الذي ينطلق من حفظ وجودنا في وطننا، يؤمن سيادة مفاهيم أخلاقية إنسانية وعدالة مجتمعية تمكن وتوفر الأمن المجتمعي والصحة المجتمعية العامة. في سبيل ذلك هناك حاجة للتفريق بين المركب الديني، القومي والوطني في ادارة الصراع، وفهم واعي لمقومات الصراع والاطراف المشاركة وهي مهمة جسيمة بها تحدي كبير للعرب لاستعادة حضورهم الفاعل المبني على فِكر مُنفَتِح ونَير يعتمد منظومة قيمية أخلاقية كمرجعية فكرية وسلوكية.

لا بد من تغيير نموذج موجود يركز على الانتماء الهوياتي الأحادي، وتجنب مشاركة القيم والأديان القائمة على القيم والأخلاق الإنسانية التي تعتمد على التنوع والتعدد عابر للحدود ومحولا حال السلوك من حال الانكار في وضع إعطاء "الظهر للظهر" وتطوير حال الاعتراف والاحترام المتبادل في وضع منح "وجه لوجه" بين الأطراف. إن مساهمة تغيير الخطاب والممارسات عابر لحدود الهويات القومية تساهم في تقوية المجتمعات المسلمة في المجتمعات التي بها تعايش التعددية، لتجنب تمكين الفصل العرقي والمكاني. من الممكن تأمين واستدامة مفهوم المجتمعات المشتركة في سياق تنامي الهويات ذات الأبعاد القومية / الدينية، خاصة في المجتمعات الموجودة في صراع عميق وتفاوت بنيوي، وتعاني من حال به تمييز مُمَاسس وتسود بها حال التوتر بين المواطنة والدين / والانتماء القومي في الدولة القومية. والسؤال، هل يمكننا تمكين المجتمعات المشتركة النامية على المستوى الوطني والمحلي / الحضري – البلدي بينما يحدث المزيد من الاستقطاب على المستويات الوطنية، في ظل الإسلاموفوبيا. للإجابة على هذا التساؤل لا بد من اجراء ابحاث ودراسات لوضع اجوبة توجه سياسات لتحويل نموذج خطاب وسلوك الهوياتي الأحادي الى نموذج خطاب وسلوك هوياتي قيمي أخلاقي تعددي.

مراجع

ريان، صبحي. **النّهج الجديد وقضايا المجتمع العربي في إسرائيل**. دار الهدى للطّباعة والنّشر كريم، 2022.

أبو هنية، حليمة. "مراحل تشكل وعي الهوية عند الفلسطينيين". **شؤون فلسطينية**، 265 (2016): 127-141.

أبو نداء، أشرف صقر. "الهوية الفلسطينية المتخيلة بين التطور والتأزم." **المستقبل العربي** 423 (أيار/مايو، 2014): 81-97.

أبو خليف، محمد. تعريف الهوية.

2021https://mawdoo3.com/%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%81_%D8%A7%D9%84%D9%87%D9%88%D9%8A%D8%A9#google_vignette

أمارة، محمد. لغتي هويتي؛ نحو سياسة لغوية شمولية لمواجهة تحديات اللغة العربية في إسرائيل. كفر قرع، 2020.

البديري، موسى. الفلسطينيون بين الهوية القومية والهويّة الدينيّة ".*مجلة الدراسات الفلسطينية* 21 (1995): 3-27.

البشتاوي، محمد. "الهوية الوطنية الفلسطينية في مئة عام (1907-2007)." *مؤتمر الهوية الفلسطينية.. إلى أين؟* مركز دراسات التراث والمجتمع الفلسطيني في جمعيّة إنعاش الأسرة، 2008.

الجابري، محمد عابد. المسألة الثقافية في الوطن العربي منذ الخمسينات. *مجلة المستقبل العربي*، م30، ع 346 (2007): 6-24.

الجابري، محمد عابد. *الهوية... العولمة... المصالح القومية*. مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.

الحلايقة، غادة. "مفهوم الهوية في الفلسفة" (2018)
https://mawdoo3.com/%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85_
%D8%A7%D9%84%D9%87%D9%88%D9%8A%D8%A9_%D9%81%
D9%8A_%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D8
%A9

تماري، سليم. "الهوية وبناء الدولة في الكيان الفلسطيني." *مجلة الدراسات الفلسطينية* 32 (1997): 3-9.

حجاوي، سلافة. "مقدمات الهوية الوطنية الفلسطينية وإشكالياتها: 1871-1914" *مجلة رؤية* 10 (2001): 36-53.

الخالدي، رشيد. *القفص الحديدي؛ قصة صراع الفلسطينيين لإقامة دولة*. 2007؛ الترجمة العبرية: معهد فان لير القدس، 2010.

الدباغ، مصطفى مراد. بلادنا فلسطين. دار الشفق، 1988.

الدبش، أحمد. "جذور الهوية الفلسطينية منذ أقدم العصور" *صامد الاقتصادي* 141 (2005): 11-33.

خالد، رقية. "ما هو مفهوم الهوية؟ وكيف يتم تكوينها وما أنواعها. مفاهيم" (2022)
https://mafahem.com/%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85%
D8%A7%D9%84%D9%87%D9%88%D9%8A%D8%A9

خمايسي، راسم محيي الدين. "السّير ضد التّيار: إشكاليات التّخطيط الحيّزي وتحدياته في منطقة الأغوار الفلسطينية نموذجًا"، مؤسسة الدراسات الفلسطينية. 2020
https://www.palestine-studies.org/ar/node/1650469

خمايسي، راسم محيي الدين. "التّخطيط الحيزي والممارسة الاستعمارية الصهيونية." *المستقبل العربي*، السنة 45، 525 (2022): 45-58.

خمايسي، راسم محيي الدين. "إسقاطات قانون القومية الإسرائيلي علي تقليص مكانة المواطنة للعرب الفلسطينين: قراءة أولية." *مواقف* 8 (2023): 24-38.

كناعنة، شريف. "نحو دولة فلسطين المتخيلة." في *الهوية الفلسطينية.. إلى أين؟* تحرير: شريف كناعنة، 243-253. مركز دراسات التّراث والمجتمع الفلسطيني في جمعيّة إنعاش الأسرة، 2009.

مجلي، نظير. *مسؤولية الأقلية*. شحريت، ريشون ليتسون، 2022.

ميعاري، محمود. "هوية الفلسطينيين في إسرائيل: هل هي فلسطينية-إسرائيلية؟" *مجلة الدراسات الفلسطينية* 10/3 (1992): 40.

عودة، أيمن. *الوطنيّة والمواطنة*. مكتبة كل شيء، 2023.

غافل، عدي محسن. "صلح وستفاليا وأثره في انهاء الصراع الديني في أوروبا عام 1648." (2015)
file:///C:/Users/user/Downloads/180524-163134_231229_101928%20(1).pdf

ساند شلومو، 2010. اختراع الشعب اليهودي. ترجمة سعيد عياش. مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. رام الله.

عبد القادر، رضوى, 2005. "المكون العربي في الهوية الفلسطينية ".*مجلّة صامد الاقتصادي*، ع 141: 113-126.

عصمت، معالي أحمد، 2005. "المكون الإسلامي في الهوية الوطنية الفلسطينية ".*مجلّة صامد الاقتصادي*، ع 141: 127-138.

Crawford, James. *The Edge of the Plain: How Borders Make and Break Our World*. Kindle Edition, W. W. Norton & Company, 2023.

De Anca, Celia and Aragon, Salvador. *The 3 Types of Diversity that shape our Identities*, Harvard Business Review, 2018. https://hbr.org/2018/05/the-3-types-of-diversity-that-shape-our-identities

Falah, Ghazi. "The 1948 Israeli–Palestinian War and Its Aftermath: The Transformation and DeSignification of Palestine's Cultural Landscape." *Annals of the Association of American Geographers*. 86/2 (1996): 256-285.

Khalidi, Rashid. *Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness*. Columbia University Press, 1997.

Kolossov, Vladimir. "Border Studies: Changing Perspectives and Theoretical Approaches." *Geopolitics* 10/4 (2005): 606–632. doi:https://doi.org/10.1080/14650040500318415.

Morris, Benny. *The Birth of the Palestinian Refugee Problem: 1947-1949*. Cambridge University Press, 1991.

Smooha, Sammy. "The Arab Minority in Israel: Radicalization or Politicization?" *Studies in Contemporary Jewry* 5 (1989): 59-88.

Zaga, Moran. *From Social Boundaries to Territorial Boundaries: The Changing Concept of Borders within the Arab World*. A thesis for Doctor. Department of Geography and Environmental Studies, University of Haifa, 2018.